٩

الصريع

إذا كان في صدر طريف قلب شاعر مفتون بالحياة والطبيعة والجمال. فان وراء جبهته دماغاً طلاعا الى المعرفة. واستشفاف كنه الحقائق. وإذا كانت العلوم على اختلاف ألوانها ومراميها أروع ما يجتذب نفسه من متع الوجود، فان لطائفه منها من الروعة في نفسه ما يذهله عن نفسه، وينسيه المتع والوجود. وإذا كان لهو باً ممراحاً نزاعاً بفطرته إلى اللهو والعبث البريئين. فانه طموح عزوم لا يتهاود في مراده، ولا يرتضي فوق شأوه شأواً. وإذا حالت ظروف كالقدر قاهرة دون تجوله في انكلترا، والمانيا، وروسيا، وإيطاليا، واقتباسه شذى من حضارات تلك الأمم وثقافاتها فانه لم يستهلك وقته بباريس كما قد يتبادر إلى ذهنك في مطاردة اللهو وتصيد الكواعب، فهو منذ حلوله في الحاضرة الفرنسية. يتنقل كالسلع بين مدارج معهد الحقوق

والسربون ومدرسة العلوم السياسية . ويعب التشريع والسياسة والتاريخ وعلم الاجتماع وفلسفة الأديان عباً . وإذا كان من العسير عليه أن يظفر بين طلاب تلك المعاهد الذين لا يكادون يجتمعون على أصوات الأساتذة المحاضرين حتى يتفرقوا أفواجاً، بمن يتطوع لمعونته فى دروسه. فإنى أذكرك أن طريفا لم ينل من دهره شيئاً إلا بالكفاح وشق النفس وأنه تعود أخذ العلم من كل قسم عزيز أو بغيض ، ذكى أو غبى ، عذب أو مستهجن . ولعل أسمج من استقرأ فى عروس العالم وزينة الدنيا ، زنجية جاءت إلى باريس من جزيرة « الغوادلوب » لتدرس الفلسفة فى السربون . فاتصل بها طريف فى نادى جمعية الطالبات واستعانها إبان أحد الاختبارات مقابل أجر معين .

كانت هذه الزنجية قزمة ، ضخمة الهيكل ، مخشوشنة الراحتين ، كخف البعير ، جشـــاء الصوت ، عاصفة النبرات . متولعة (بالراء الباريسية) تغوص كلما قرأت أو تحدثت فى تضاعيف الألفاظ والسطور ، باحثة عن رأيها

المنشودة رغبة فى تغنينها وطلبا لما فى التغنين من متعة التقليد واستمالة الأسماع ، أو تنفيرها بالأحرى ، والويل ثم الويل لهذه الراء إن ظفرت بهـــا وقذفتها من لسانها المتحذلق غاء . بل الويل كله لأذنى طريف اللتين حرمتا فى الحى اللاتينى رنة هذه الراء العذبة ، حتى من أفواه نفر من رفاقه بنى يعرب الأبرار. والأمرّ الأمرّ أن يتجرع قلب طريف مرارة هـذه القارئة الظالمة المظلمة ، التي لم تكن تكلمه إلا بتقزز واستكبار . ولا تصافحه إلا مرسلة الأصابع متثاقلة ، ولا تقرأ له إلا بعد أن ينقدها أجرها أولا ، أربعة فرنكات وربع الفرنك فى الساعة . كل ذلك لأنها كانت تحتقر الرجال ، ولا ترى فيهم غير ما رأى أبو العلاء فى النساء . فكأنما هى رد المرأة واحتجاجها الصارخ على شيخ المعرة . وكأنما طريف هو المسؤول عن شريكه فى البلوى وإن لم يشاركه فى الرأى .

وقد جاء ضغثنا على إبالة، إنها كانت مخلافة فى مواعيدها. فما تأتى طريفا إلا متأخرة ساعة أو ما يزيد ، حتى إذا عاتبها

فى ذلك وأظهر إفتقاره إلى الدرس والمطالعة . أجابت مبتسمة بل مكشرة « من حق الجميلات أن ينتظرن » « ينتظغن » .

وقد كانت تتفنن فى معاذيرها التى لا تنتهى ، فتزعم أحيانا أن تبعة تأخرها لا تقع عليها بل على أفلاطون . وارسطاليس . وسقراط . وزينون . وأبيقور . وسواهم من فلاسفة الأغريق الذين طاروا بها . وهى إن طارت فكالغراب بين أولئك النسور . إلى مقرهم فى جبل الألب والبرناس . حيث حالوا دون مجيئها فى الوقت المعين . ثم تهبط فيلسوفتنا السوداء من علياء الفلسفة فتستقر فى كرسيها المعتاد وتضع الساق على الساق ، مشعلة لفافة تدخنها بتلذذ عظيم وتتحدث بلذة أعظم . عن الروح والفناء والخلود . وبعد أن تقضى على ثلثى الساعة وعلى صبر طريف يخطر ببالها أنها جاءت لتقرأ لا لتلقى محاضرة فى الفلسفة . فتأخذ الكتاب . وتشرع فى القراءة ماصة حب (البستيل) ومرسلة السعله تلو السعلة ، والقحة اثر القحة . حتى إذا

أدركها الملل وما أسرع مللها . أطبقت الكتاب قائلة : « أنا لا أحب الحقوق وإنى لأعجب كل العجب كيف استطعت « أيها البائس المسكين » أن تقبل على هذا اللون من الدرس وأن تهمل الفلسفة منار العقول والأذهان » ثم لا يلبث الوجدان الفلسفى ، أن يلهمها بعض الذوق فتعود إلى الكتاب . فالحديث . فالكتاب . فالحديث . قائلة بقراءتها وحديثها وغائها وأنفاسها طريفا ، ذلك المسكين الذى لم يكن فى وسعه إلا أن يصبر على بلواه . ويكظم غيظه وأساه ، مخافة أن يجرح قارئته الحساسة فتغضب عليه ، وتتخلى عن معونته فى وقت هو أحوج ما يكون إلى قارىء .

على أن قراء طريف لم يكونوا جميعاً بسماجة تلك القارئة العانس ، التى أبت ان تسقيه العلم الا كل مصة بغصة . والتى لم يطق حملها غير شهر واحد ، بل كان معظمهم من صفوة الطالبات اللاتى يعجبك ظرفهن ، وحلو حديثهن ، فتستأنس بهن ، ويهفو الى لقائهن فؤادك . وكان أكثر تلك الطالبات يختلفن إلى غرفة طريف فى أوقات

معينة ويقرأن له دون مقابل ما شاء من أسفار ومصنفات كما كانت زمرة منهن تدعونه إلى منازلهن ، وتشركنه فى حفلات أسرهن الخاصة ، واختلافها إلى مسارح التمثيل ، ومحافل الموسيقى ، والحدائق والغابات ، ولا مراء أن هذا الجو البهيج الذى غمر طريقا فى الحي اللاتينى ، خفف عنه لوعة الفرقة والاغتراب وأعانه إلى حد كبير على إدراك الهدف الذى من أجله أمّ الحاضرة الفرنسية . فأجيز فى الحقوق بامتياز أثار إعجاب أساتذته واللجنة الفاحصة حتى أن بعضهم بكت رفاقه ورفيقاته الفرنسيين لتفوق عربى عليهم حتى فى فهم قانونهم المدني الفرنسى واستنباط أحكامه.

بيـــد أن كيد طريف المتصل على إنفاذ ما أسماه « المشروع الجنونى » المنطوى على تحضير ست دبلومات وشهادات فى عام واحـد . أضنى قواه وأوشك أن يسبب نقله من مصنع الفكر إلى مقبرة العقول ، فتلافى هـذه الأخطار المحدقة به مكافحاً ما استطاع من همه العلمى ، واقتصر على ثلاث دبلومات نالها كلها بعون الله .